

Research Article

بناء الخطبة لدى الشيخ إبراهيم الكولخي: دراسة أدبية تحليلية

الدكتور نور عتيق بلاربي

قسم اللغة العربية، جامعة عثمان بن فودي صكتو - نيجيريا

Article History

Received: 04.02.2020

Accepted: 01.03.2020

Published: 15.03.2020

Journal homepage:

<https://easpublisher.com/easmb>

Quick Response Code



ملخص البحث :

هذا البحث عبارة عن دراسة خطب هذا الخطيب البارع الشيخ إبراهيم الكولخي، من حيث بنائها، ذلك لأن النص الأدبي الجيد يبنى بناء متماسكاً، فتكون له مقدمة ولب ومقطع، وجودته تتمثل في قيمة هذه الأجزاء، بحيث يكون له مطلعاً جيداً جذاباً في صورة ملفقة للنظر تدعو القارئ إلى النص وتحرضه للقراءة، كما يجب أن يكون المقطع أية من آيات الجمال بكونه جذاباً يبقى في ذهن السامع حتى بعد لحظة طويلة. واستخدم الباحث المنهج التكاملي، فاستهل بعد المقدمة بنبذة عن الخطيب، ثم تعريف البناء في المعجم والاصطلاح، وبعد ذلك لمس الباحث أنواع المطالع التي يستخدمها الخطيب وما فيها من الجودة، ثم تطرق إلى كيفية بناء الأفكار الجزئية في لب الخطب ومن هناك إلى مقطع خطب الخطيب وما رسم في كل ذلك من معالم الجمال والجودة ليظهر براعته الفائقة في صناعة الخطب.

الكلمات المفتاحية: بناء - الخطبة - الشيخ إبراهيم - أدبية

Copyright @ 2020: This is an open-access article distributed under the terms of the Creative Commons Attribution license which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium for non commercial use (NonCommercial, or CC-BY-NC) provided the original author and source are credited.

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد القائل: "إن من البيان لسحراً"¹ وعلى آله وصحبه فرسان الخطاب وبنائهم الحكم والعرفان. وبعد:

إن الشيخ إبراهيم الكولخي أديب بارع، وفارس من فرسان الخطابة والبيان، وهو من أشد الشخصيات الإفريقية تأثيراً على المجتمع الإسلامي في الغرب الإفريقي، كما أن لخطبه دوراً فعالاً في إرشاد الناس في مجتمعات شتى بإفريقيا وذلك لكثرة ترادها على المنابر. ولم تتمثل براعة هذا الأديب في كثرة الخطب وشيوعها فقط، بل تشمل كذلك الجمال الفني الذي يكمن في بناء تلك الخطب، من حيث المطالع والعرض والتخلص من فكرة إلى أخرى وحسن المقطع؛ التي من خلالها يدرك القارئ أن الخطيب بارع في تلك الصناعة. كما تبرهن على أن خطب الشيخ قيمة تستحق الدراسة لما فيها من قيم فنية. وليوضح الباحث هذه الظاهرة أكثر كتب هذه المقالة بعنوان: "بناء الخطبة لدى الشيخ إبراهيم الكولخي: دراسة أدبية تحليلية" وتحتوي المقالة على المحاور الآتية:

- المقدمة
- نبذة يسيرة عن الخطيب
- بناء الخطبة لدى الخطيب
- الخاتمة

نبذة يسيرة عن الخطيب:

هو الشيخ إبراهيم ابن الحاج عبد الله الكولخي، والده عالم جليل ومجاهد كبير، ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل عقبة بن نافع. أما والدته فهي السيدة عائشة بنت السيد إبراهيم².

ولد الخطيب يوم الخميس الخامس عشر من شهر رجب عام 1318 هـ بقرية أسسها والده وسماها طَيْبُ أَنْبَسِين، وهي تابعة لإقليم بيبين سألْم في محافظة كولخ بالجنوب السنغالي. ونشأ في كنف والديه الكريمين فرباه وأحسن تربته، وكان مضرب المثل في طاعة الوالدين³.

تعلم الشيخ على يد والده الحاج عبد الله، فغذاه بالعلوم وسقاه بالمعارف. قرأ عليه القرآن وحفظه وهو في السابعة من عمره، إضافة إلى ما أخذ عليه من المبادئ العلمية، حتى تبحر في العلوم. ولم يتعلم الشيخ على أحد غير والده، وقد اشتهر عنه: "ما قرأت إلا على والدي"⁴. حتى أصدر كتابه المعروف بـ

¹ - ابن ماجه، السنن، ج: 11 ص: 186، نسخة إلكترونية مصدرها المكتبة الشاملة الإصدار الثالث
² - مولود، محمد سالم بن محمد ترجمة شيخ الإسلام إبراهيم بن عبد الله انياس، مخطوط، يوجد بمكتبة الباحث الخاصة ص: 2
³ - حبيب ياغول، الصور البيانية في ديوان نور البصر للشيخ إبراهيم الكولخي، رسالة قدمها الطالب لقسم اللغة العربية جامعة عثمان بن فودي صكتو للحصول على درجة الماجستير، سنة 2011، ص: 13
⁴ - سالم، عبد الفتاح بن أحمد، الجزء الرابع من رسائل وخطب الشيخ إبراهيم، مخطوط يوجد بمكتبة الباحث الخاصة، ص: 3

(روح الأدب لما حواه من حكم وأدب) وهو ابن إحدى وعشرين سنة. ولم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره حتى أخرج دواوين في المديح النبوي ومدح الشيخ أحمد التجاني، وكلها تشيخ برسوخ القدم في الذوق الصوفي والعلوم اللغوية، كما ذاع صيته خلال تلك الفترة في سائر بلاد السنغال مفسراً للقرآن الكريم ومقدماً من كبار مقدمي الطريقة التجانية وخليفة من خلفائها.⁵

في سنة 1946 بدأ الشيخ رحلة الدعوة انطلاقاً من مدينة كنو عندما زار نيجيريا تلبية لدعوة أمير كنو الحاج عبد الله بايروا، ومعه كتابه "كاشف الإلباس عن فيضة الختم أبي العباس" ثم بعد عودته إلى السنغال أخذت الوفود تغد عليه من كل فج عميق.

وفي سنة 1961 زار الشيخ جمهورية مصر بدعوة من الرئيس جمال عبد الناصر وعندها طلبوا أن يصلي بهم الجمعة بجامع الأزهر ألقى خطبة رائعة اندهش منها أئمة الأزهر وشيوخه بشيخ الإسلام لما رأوا فيه من الحكمة وفصل الخطاب. فكان بذلك أول أفريقي غير عربي نال شرف الإمامة بجامع الأزهر.⁶

وأما ما يتعلق بالتأليف، فقد ألف الشيخ إبراهيم تآليفات كثيرة، وجل ما ألف من كتب عبارة عن أجوبة وردود⁷، منها: ورفع الملام عن رفع وقبض اقتداء بسيد الأنام، وتبصرة الأنام في أن العلم هو الإمام، وغيرهما، ثم الدواوين⁸ والرحلات والرسائل⁹ وقد عدّ بعضهم مؤلفاته ما بين منشور ومنظوم فوصلت إلى سبعين ونيف مؤلف.

أما خطبه فكثيرة جدا حيث أنه يلقي الخطب في مناسبات مختلفة، وخطب جمعة بجامع كولخ، وهي متنوعة بتنوع التعليمات والمراسم الدينية، وقد استغنى الأئمة في ذلك الجامع بخطبه عن غيرها لكثرتها وتنوع موضوعاتها منذ أيامه إلى يومنا هذا.¹⁰

وأما عن تلامذته فهم كثر جدا في أنحاء العالم، حتى أن إحدى الصحف المصرية تقدر عددهم فور وفاته بما يزيد على ثلاثين مليوناً¹¹ ومجمل القول إن تلاميذ الشيخ إبراهيم موجودون حيث توجد الطريقة التجانية في كل أنحاء العالم.¹²

انتقل الشيخ إلى رحمة ربه في الخامس عشر من شهر رجب عام 1395هـ/1975م عن عمر يناهز ستا وسبعين. وخلف أبناء كثيرين، أكثرهم حفظة للقرآن الكريم، وبرز أكثرهم في الإنتاج الأدبي فنظم دواوين، واشتهر البعض في ميدان الدعوة الإسلامية على الصعيد العالمي.

بناء الخطبة لدى الخطيب

البناء في اللغة من بنى يبني بناء وبنينا، بمعنى: أقام الجدار ونحوه كما في قوله تعالى: "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص"¹³ وتستعمل الكلمة مجازاً في معان كثيرة منها تعبير المدن، وتكوين الرجال، كما وردت في قول الشاعر:

يبني الرجال وغيره يبني القرى * شتان بين قرى وبين رجال¹⁴

وتخيل النقاد في عالمهم الداخلي عن صورة بناء النص الأدبي مع البناء الحقيقي فأدركوا أن هناك علاقة ومثابرة بينهما فربطوا هذه الصورة بتلك وشبهوها بها.

ولقد وقف النقاد طويلاً عند مطلع الخطبة وعند الانتقال من فاتحتها إلى العرض أو من فكرة إلى أخرى ثم عند خاتمتها¹⁵ وهذا ما سيحاول الباحث الوقوف عليه في خطب الشيخ إبراهيم الكولخي ليبرز ما في هذه الأجزاء الهامة من الجمال الفني.

حسن المطلع

- 5 - مقري، إبراهيم أحمد، الدكتور، الصورة الشعرية في ديوان الشيخ إبراهيم الكولخي، رسالة للحصول على درجة الدكتوراه، قدمها الباحث إلى قسم اللغة العربية جامعة بايرو كنو، ص: 17
- 6 - محمد ولد الشيخ عبد الله التجاني، الشيخ، ماذا عن الشيخ إبراهيم رضي الله عنه، مطابع مجمع الإمامة للنشر والتوزيع، تونس، 2012م ص: 396
- 7- الخليفة إسماعيل بن إبراهيم الكوني في كلمة ألقاها في الذكرى الخامسة بعد المائة لمولد الشيخ إبراهيم انبياس، بقاعة مناسبات جامع الشيخ أحمد التجاني، كنو، يوم الأربعاء 2005/8/14م
- 8- وهي عبارة عن خمسة عشر ديواناً وهي: تيسير الوصول إلى حضرة الرسول، إكسير السعادات في مدح سيد السادات، سلوة الشجون في مدح النبي المأمون، أوثق العرى في مدح سيد الوري، شفاء الأسقام في مدح خير الأنام، مناسك أهل الوداد في مدح خير العباد، نور الحق في مدح الذي جاء بالصدق، سير القلب بالمصطفى الحب إلى حضرة الرب، طيب الأنفاس، الكبريت الأحمر، مفتاح العطية، نوادر الحكم، جلاء الصدور، تحفة أطايب الأنفاس، جبر الكسر في مدح شفيع يوم الحشر،
- 9- وقد جمعت بعده، من ذلك ما ألفه الشيخ أبو الفتح البرواوي بعنوان: جواهر الرسائل الحاوي على بعض علوم وسيلة الوسائل. وقد نشر بدون ذكر مطبوعة وبدون تاريخ.
- 10- بعضها مطبوع والبعض لا يزال مخطوط وهي كثيرة جدا توجد كثير منها بمكتبة الباحث الخاصة.
- 11- مجلة آخر ساعة، عدد 2128، بتاريخ 1975/8/5
- 12- مقري، الصورة الشعرية، مرجع سابق، ص: 24
- 13- سورة الصف: 4
- 14- ابن منظور الإفريقي، محمد ابن مكرم، لسان العرب، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى د. ت. ج: 14 ص: 89.
- 15- أحمد أحمد بدوي، الدكتور، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة مصر، بدون تاريخ، ص: 296

عني النقاد في الخطبة بالمطلع، لما له من أثر كبير في نفوس السامعين، فهو أول ما يطرق مسامعهم، وله أثر كبير في النفس كما قالوا: "إن للأثر الأول في النفس ما يضمن له البقاء الطويل من ناحية، ويسترعي الأذان للتنبية والإصغاء من ناحية أخرى، ومن أجل ذلك كان المطلع المحل الأول لعناية الخطيب، يهيئته في نفسه ويبدل في اختيار معانيه وأسلوبه كل ما يملك من قوة وجهه".¹⁶

وأحب نقاد العرب في مطلع الخطبة ما يدل على الغرض منها، فكانوا في تحميداتهم يشيرون إلى الهدف من الخطبة، وكانوا يفرقون بين صدر خطبة الزواج، وخطبة العيد، وخطبة الصلح، وغيرها.

ولقد كان الشيخ إبراهيم الكولخي يهتم غاية بمطلع خطبه، حيث يفتتحها افتتاحا يفرغه في قالب جذاب يشير -غالبا- إلى مضمون الخطبة. ولما وقف الباحث عند مطالع خطبه واعتنى بها وجد أن خطب الشيخ من حيث المطلع تتنوع إلى أربعة أنواع.

1. تارة يضمن الخطيب مطلع خطبته الحمدلة والصلصة في قالب يوحي بمضمون الخطبة ويطلب في ذلك بالأسجاع الرنانة، وهذا أغلب مطالع خطبه. وينطبق على ذلك خطبته في السلوك والتربية التي ألقاها في المولد النبوي التي افتتحها بقول: "الحمد لله الذي خصنا بالمختار من كل مختار، فكفانا باختياره كل اختيار. فقال: "كنتم خير أمة أخرجت للناس"¹⁷ وقال: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس"¹⁸ تفضيلا من الملك الوهاب الذي ليس بغافل ولا ناس، لا تأخذه سنة ولا نوم ولا نعاس، والصلوة والسلام على هذا النبوس، أفضل نبي ورسول بلا تردد ولا وسواس، وعلى آله وصحبه القادة الأكياس"¹⁹.

فقد استهل الخطيب استهلالا حسنا، حيث حمد الله سبحانه وتعالى ووصفه بالمحامد، وصلى على رسولنا محمد ﷺ، وآله وأصحابه. لم يكتف الخطيب بهذا في المقدمة بل ضمن المقدمة سبب اللقاء والخطبة ليذكر الجمهور بالمناسبة التي اجتمعوا من أجلها وهي مناسبة مولد النبي ﷺ، كما أتى بما يبرهن على أن أمة النبي عليه الصلاة والسلام أمة كرمها الله تعالى؛ ولا بد من أن تكرم نفسها هي أيضا باتخاذ ما يزكي النفس ويظهر القلب، وذلك يمثل السلوك والتربية، وبهذا جعل المقدمة تناسب موضوع الخطبة.

2- وتارة أخرى يستأنس الخطيب بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية فيسرد كمية كبيرة منها يبني عليها مقدمة الخطبة، فعلى شاكلة ذلك نجد خطبته التي ألقاها بمدينة كولخ لمناسبة مهرجان المولد النبوي حيث استهلها قائلا: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم. الحمد لله رب الناس، ملك الناس، إله الناس، من جعل الناس كل الناس فقراء إلى واسع فضله، وهو وحده الغني الحميد، المبدئ المعيد، الغفور الودود، ذو العرش المجيد، فعال لما يريد. أحمده تبارك وتعالى على وجود سيدنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله ﷺ بلسان سيدنا محمد من علة وجوده الرحمة والهداية قال تعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"²⁰ وبرهان من الله ونور، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين"²¹

افتتح الخطيب هذه الخطبة بحمد الله تعالى على معالم قدرته منها أنه خالق الخلق ومدبر أمورهم، فاستمر يورد الآيات في ذلك وما في معانيها، كقوله: الغفور الودود، ذو العرش المجيد، فعال لما يريد، واستمر يسرد الآيات استناسا بالقرآن الكريم. وهذا المطلع من المطالع القيمة حيث إنه تضمن الهدف من اللقاء والغرض من الخطبة وهو ذكرى ميلاد النبي ﷺ، فبين في المقدمة أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الرحمة المهداة والنور والبرهان، وهذا ما تضمنته الخطبة.

3- أما القالب الثالث في افتتاح خطب الشيخ إبراهيم الكولخي فهو على شاكلة النظام السابق، إلا أن الخطيب يقصر في الحمدلة حتى كأنه لا يرغب فيها إلا تبرئة خطبته من أن تسمى بالبئراء أو الشواه. ومن هذا القبيل خطبته في مناسبة افتتاح تفسير القرآن في شهر رمضان حيث استهل بقول: "الحمد لله، نحمده ونشكره، اجتمعنا مع الأحاب، اجتماعا بالذات من بلاد شتى، وذلك أقوى دليل على أن صحبتنا لله، جمعنا هذا الشهر الكريم، شهر رمضان فيه ليلة خير من ألف شهر قال القرآن إنها ليلة خير من ألف شهر"²²

استهل الخطيب هذه الخطبة بحمد الله تعالى لكن على شاكلة تخالف المعهود معه في الحالات السابقة، فافتتح كأنه يتسرع إلى ذكر ما في خاطره، ولم يكلف نفسه تمهيدا ولا شيئا من هذا القبيل، ذلك لأن القادمين أتوا من بلاد شتى ومعظمهم من موريتانيا ونيجيريا، فقد كابدوا المشقات فقط ليستمعوا إلى تفسيره، فرأى الخطيب أن ليس من الحكمة أن يشغلهم بتمهيدات طويلة، ولذا اختصر في المقدمة ليأخذ بأيديهم إلى ما فيه صلاحهم دنيا وأخرى.

4- أما النوع الأخير من مطالع خطب الشيخ فهو عندما يفتتح خطبته افتتاحا مباشرا، وذلك عندما يكون مستعجلا ومثلهما لقول شيء عاجل، أو غاضبا لرد باطل عارض، أو متحيرا لحدث أمر غير متوقع. ومن نماذج ذلك خطبته التي ألقاها في المؤتمر العالمي عن شأن الرق، فقد جمع كل قوته واستهل تلك الخطبة رادا على باطل يريد أحد المشاركين أن يثبته وهو نفي الرق في الإسلام، ولما أن الشيخ استشاط غضبا وصار مثلهما ليلقي مقاله ردا على ذلك الباطل استهل مستعجلا قائلا: "أيها السيد الرئيس، السادات: من الغريب أن أبيض ينكر الرق وأسود يثبته، وهذا أدل دليل على أننا رواد الحق، أفاد الأستاذ أبو زهرة وأجاد في بحثه، وعلق على قوله تعالى: "فإما مئا بعد وإما فداء"²³، أنه لم يذكر الاسترقاق، والرسول ﷺ، لم يسترق أحدا، فإن كان المقصود أن الإسلام أحب التحرير

16- أحمد أحمد بدوي، أسس النقد، المرجع السابق، ص: 639

17- سورة آل عمران: 110

18- سورة البقرة: 143

19- البرواوي، أبو الفتح، الشيخ، جواهر الرسائل الحاوي بعض علوم وسيلة الوسائل، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص: 13

20- سورة الأنبياء: 107

21- البرواوي، أبو الفتح، الشيخ، جواهر الرسائل الحاوي بعض علوم وسيلة الوسائل، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص: 20

22- الدحان، محمد بن السيد، الجزء الثالث من رسائل الشيخ إبراهيم، مخطوط يوجد بمكتبة الباحث الخاصة، ص: 209

23- سورة محمد: 4

وحض على العتق، قال: "فتحري رقية"²⁴ إلى غير ذلك فمفهوم، وإن كان المقصود من هذا عدم ثبوت الرق في شرعنا المطهر فإننا لا نفهمه، لنصوص الآي، والأحاديث المصرحة، وعمل النبي ﷺ، وتقريره أعمال الصحابة بالاسترقاق.....²⁵

ولا يرى الباحث للخطيب عيبا في هذا الموقف الحساس الذي يستخدمه في افتتاح بعض خطبه، ذلك لأن المقام يستدعي ذلك، وقد أوجب النقاد اهتمام الخطيب بالجمهور المستمع، فقالوا: "إن المقام الذي أنشئت له الخطبة مما يجب على الخطيب أن يدخله في حسابيه لتتجح خطبته ويصل بها إلى الغاية منها، وهي التأثير والإقناع."²⁶ هكذا كان الشيخ يهتم اهتماما بالغا بمطالع خطبه ويوليها عناية بالغة، لما لذلك من دور فعال في إيصال الرسالة التي تضمنتها الخطبة؛ فتبدو مطالع ذات قيمة فنية.

العرض:

تتجلى براعة الخطيب عندما يصل إلى العرض حيث يشرح للمستمعين الأفكار التي يحاول إقناعهم بها. وكان الشيخ إبراهيم الكولخي يبذل جهده في عرض خطبه فيفرغها في قالب جذاب، وهذا يتمثل في أمور كثيرة منها:

عدم تكرار الفكرة:

إن الخطيب -كما لاحظ الباحث- لا يكرر فكرة سبق أن عرضها، لأن هذا سيئ في صناعة الخطبة.²⁷ ذلك لأن النفس تكره المكرر وتملأه، وقد يدفع التكرير إلى تطويل يبعث السأم في السامعين أو يدفعهم إلى الاعتقاد بأن الخطيب فقير في أفكاره.²⁸ وهذا يظهر جليا في خطبه خاصة الطويلة،

ودأب الخطيب عندما يلقي خطبة طويلة متعددة الأفكار أن يجعلها في نقاط مرقمة، وتكون كل فقرة مخصصة لفكرة معينة. ومن ذلك خطبته التي ألقاها في غانا في الرد على أباطيل أحدثتها فئة سماها الخطيب بالدجاجلة في الإسلام، فبعد المقدمة قسم الخطيب محاور خطبته في ثلاثة أرقام قائلا وهو يرسم للمريد طريق الخلاص من أمثال تلك الترهات المهلكة: "أولا: اتباع النبي ﷺ، في جميع الأقوال والأفعال، حيث أن الله تبارك وتعالى يقول: "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله"²⁹..... فواصل حتى فصل النقطة تفصيلا، ثم قال: "ثانيا: ذكر الله تبارك وتعالى بالغدو والأصال، فشرح النقطة شرحا وافيا مبينا وجوب الذكر وفائدته. ثم قال: "ثالثا: مصاحبة شيخ كامل عارف بالله تبارك وتعالى، قال تعالى: "واتبع سبيلا من أناب إلي"³⁰

فواصل بفصل النقطة ويشرح معنى الإنابة ووجوب السلوك تحت شيخ عارف بالله تعالى حتى وصل إلى نهاية الخطبة دون أن يكرر شيئا مذكورا.³¹ انظر كيف حدد الخطيب الأرقام وتبعها على حدة بدقة متناهية خوف ألا يكرر فكرة سبق أن مر بها فيؤدي ذلك إلى أن يسأم المستمعون.

وحدة الموضوع:

إن مما لاحظ الباحث في عرض خطب الشيخ أنه يعتني بوحدة الموضوع. وقد تنبه النقاد إلى ضرورة أن تكون الخطبة ذات موضوع واحد يدور عليه كلام الخطيب.³² وهذا يجعل الفكرة واضحة تمام الوضوح للسامعين فلا تشتت أفكارهم، بل يستطيعون متابعة الخطيب في رفق وهودة، كما تتيح للخطيب أن يحيط بالموضوع من جميع أطرافه.

وخطب الشيخ إبراهيم تمشي على هذا المنوال، بصوغها لغرض واحد فتتناول موضوعا واحدا على حدة، حتى يقنع الجمهور وتظهر ملامح التأثير في وجوههم. على غرار ما نجد في خطبة الخطيب التي ألقاها عن وجوب الصلاة فقد تابع الخطيب الموضوع إلى نهاية الخطبة، فقال بعد المقدمة والتمهيد: "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى"³³ وقال تعالى: "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر"³⁴ واعلموا أن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، فعليكم بالجماعة، فمن شئد شئد به إلى النار، وأخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا."³⁵

هكذا استمر الخطيب إلى أن ختم الخطبة بآيات من فاتحة سورة المؤمنين حيث يقول تعالى: قد أفلح المؤمنون- الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون"³⁶ هذه الخطبة من أولها إلى آخرها تتحدث عن الصلاة فقط، فلا داعي إلى أن يرقمها أو أن يجعل حدا بين المعاني الواردة فيها لوحدتها في الموضوع.

24- سورة النساء: 92

25- الدحان، محمد بن السيد، الجزء الثالث من رسائل الشيخ إبراهيم، مرجع سابق، ص: 78

26- أحمد أحمد بدوي، أسس النقد، مرجع سابق، ص: 640

27- الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط: 7

1998م، ص: 90

28- أحمد أحمد بدوي، أسس النقد، مرجع سابق، ص: 640

29- سورة آل عمران: 31

30- سورة لقمان: 15

31- الدحان، محمد بن السيد، الجزء الثالث من رسائل الشيخ إبراهيم، مخطوط يوجد بمكتبة الباحث الخاصة، ص: 148

32- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، كتاب الصناعتين، مطبعة محمد علي صبيح بدون تاريخ، ص: 5

33- سورة البقرة: 238

34- سورة العنكبوت: 45

35- الحميدي، محمد بن فتوح، الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق د. علي حسين البواب، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية

1423 هـ- 2002م، 308/1

36- سورة المؤمنون: 1 - 11

وكان الخطيب يعرض الموضوع بدقة متناهية حيث يشمل في العرض حكم الموضوع، وكيفية القيام به، وفضله، وجميع ما يتعلق به من ثمرات وفوائد، حتى تظهر الفكرة واضحة، ويكثر ذلك في خطبه الدينية وخطبه السياسية والاجتماعية، كما يشاهد القارئ في خطبته التي ألقاها يوم عيد الأضحى، يقول فيها عن الأضحية: "..... ومن أهم ذلك الاستئذان بسنته في عيد الأضحية الذي هو أعظم العيدين، المشروع زمن أبينا إبراهيم الخليل، حيث أمر بنبح ولده إسحق أو إسماعيل، وفدي بالكبش الخليل، فصارت سنة باقية إلى يومنا هذا، وهي أفضل من الصدقة والعنق، وقيل بالوجوب، فمن تركها وهو قادر أتم. وتجب بالنذر وبالتعيين إذا التزمها بلسانه، وبالنية عند الشراء على المعروف، والمأمور بها حر مستطيع غير حاج بمنى. والمستطيع من لا يحتاج لثمنه في العام عند مالك، ومن عنده ثوبان أحدهما يفكه باع له الثاني. وشرطها أن تكون من النعم، والأفضل الضأن ثم الماعز ثم البقر ثم الإبل والسمن والفحل، والأقرن أفضل من غيره. وأقل ما يجزئ الجزع من الضأن والثني من غيره. وهو من الضأن ابن سنة، وقيل ابن عشرة أشهر، وقيل ما له سنتان ودخل في الثالثة، ومن الإبل ماله ست. ونهى عن العرجاء، والمكسورة القرن إذا كان يدمي، والمبشومة، والمقطوعة الأذن والذنب، والصمعا³⁸" هكذا استمر الخطيب إلى نهاية الخطبة يفصل القول في الأضحية ذاكرا فضلها وكيفية ذبحها وكل ما يمت إلى ذلك بصلة، فتنبع الظاهرة بدقة متناهية حتى روى غلته، وقضى حاجته في استيعاب المراد.

الاستناد إلى النصوص

إن من ديدن الخطيب في العرض استناده كثيرا إلى النصوص الشرعية في عرض خطبه، فيفعم النص حيوية من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وأقوال العلماء، حتى يوضح الظاهرة، ولعل ذلك عائد إلى أن الخطيب عالم مرب فيعتبر نفسه في موقف التعليم ويعلم الناس الموضوع بصورة دقيقة، ويؤكد المعنى بكل ما يساعده في ذلك، حتى يفهم المستمعون القضية، وربما تصير تلك الخطبة كتابا يُعتمد عليه، وكثيرا ما في مثل ذلك يكون عرض خطبته عبارة عن النصوص فقط بحيث لا يرد منه سوى ألفاظ لا تتجاوز أن تسمى رابطا بين النصوص -إن صح التعبير، وبهذا يفصل القول في الموضوع ويبلغ الغاية والمراد، وهذا نادر في الخطباء.³⁹

ومن أمثلة ذلك خطبته في الصيام حيث يقول فيها: ".... قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون"⁴⁰ وأخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه"⁴¹ وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "الصيام جنة فلا يرفث ولا يفسق وإن امرؤ شاتمته أو قاتله فليقل إنى امرؤ صائم إنى امرؤ صائم... والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، الصائم يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزى به، والحسنة بعشر أمثالها..."⁴²

هكذا استمر الخطيب يصب في الخطبة وابل من النصوص مستندا إليها ليفصل القول في الصيام من رؤية الهلال إلى نهاية الشهر، ذاكرا ما في ذلك من فضائل وخصوصيات مما صح قرآنا وحديثا.

وقد قرر النقاد محبة الخطباء في أن يوشحوا خطبهم بأي من القرآن وسواها الأمثال، فإن ذلك مما يزيد الخطب قيمة عند مستمعيها، وتعظم به الفائدة فيها. ولعل السر في استحسانهم ذلك هو "أنهم وجدوا أنه يورث الكلام البهاء والرقعة وحسن الموقع."⁴³ ولهذا سميت "كل خطبة لا يذكر الله في أولها: البتراء، وكل خطبة لا توشح بالقرآن والأمثال: الشوهاة."⁴⁴

حسن التلخيص

اعتنى النقاد في العرض بالانتقال من فكرة إلى أخرى، حتى ترتبط أجزاء الخطبة بعضها ببعض، ويصبح الغرض بذلك واضح المعالم بين التقاسيم.⁴⁵

وللشيخ إبراهيم في ذلك باع واسع، حيث كان يربط بين أفكاره الجزئية في الخطبة، وينتقل في صورة لطيفة لجذب معه لب السامع. وأغلب طريقة يستخدمها الشيخ في الانتقال أثناء خطبه هي التعبير عن الانتقال حسب ما اقتضى المقام، فيعد المقدمة يستخدم "أما بعد" ليعبر عن انتقاله من المقدمة إلى العرض، وبين العرض والخاتمة يستخدم ما يوحي بالانتقال إلى ذلك مثل قوله: "وفي الختام.

أما في العرض فكثيرا ما يستخدم الخطيب الأرقام، لينتقل بها من فكرة إلى أخرى وهذا كثير وقد سبق أن مثل له الباحث في النقطة الماضية. كما أن الخطيب يحاول حسن التلخيص بين الأفكار الجزئية، ومن ذلك قوله في الخطبة التي ألقاها عن صوم رمضان حيث يتحدث عن فضيلة الشهر وما ينزل الله فيه من الخير فتخلص إلى فكرة أخرى دون أن يُشعر بذلك، استمع إليه يقول: "ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه. وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة. وشهر المواساة، وشهر يزيد في رزق المؤمن فيه. من أفطر صائما كان مغفرا لذنوبه، وأعتق رقبة من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيئا. قالوا يا رسول الله ليس كلنا يجد ما يفطر صائما. فقال رسول الله ﷺ: يعطي الله هذا الثواب من أفطر صائما على تمر أو شربة ماء أو مزقة لبن."

³⁷ - إبراهيم عاقب به، مجموعة خطب صلاة الجمعة، للشيخ إبراهيم رضى الله عنه، مكتبة النهضة، مدينة كولخ-السنغال، دون تاريخ، ص: 9

³⁸ - البرواوي، أبو الفتح، الشيخ، جواهر الرسائل الحاوي بعض علوم وسيلة الوسائل، مرجع سابق، 46/2

³⁹ - أحمد أحمد بدوي، أسس النقد، مرجع سابق، ص: 639

⁴⁰ سورة البقرة: 183

⁴¹ - الحميدي، محمد بن قنوح الحميدي، الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، مرجع سابق، ج: 3 ص: 57

⁴² - الحميدي، محمد بن قنوح الحميدي، الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، نفس المرجع، ج: 3 ص: 19

⁴³ - الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق محمد عبد السلام هارون، مرجع سابق، 93/1

⁴⁴ - قدامة بن جعفر، نقد النثر أو كتاب البيان، المطبعة الأميرية ببولاق، ط: 1، 1941م، ص: 95

⁴⁵ - أحمد أحمد بدوي، أسس النقد، مرجع سابق، ص: 639

كان الخطيب بصدد ذكر ما لشهر رمضان من فضائل ومزايا، لكنه أحسن التخلص حيث انتقل إلى ذكر الإنفاق وفضله والأمر به دون أن يشير إلى أنه انتقل إلى فكرة أخرى، بل لا يكاد القارئ يميز ذلك إلا أنه يجد نفسه يقرأ شيئاً آخر.

ومن ذلك قوله في الخطبة التي ألقاها بمصر وهو يتحدث عن الأخوة والحب في الله فتسلل إلى وصف الدين الإسلامي وسماحته، استمع إليه يقول: "وأنا أشهدكم أنني أحبكم جميعاً في الله، كما أشهد أنكم تحبونني في الله، وهذا أرجى ما أرجوه لنفسي ولكم، المرء كثير بأخيه، والحق أن ديننا هو الدين الجامع لجميع الخيرات الدنيوية والأخرى، وهو دين الوحدة، دين الإسلام، دين الكفاح، دين الأخوة، دين الحرية، دين المساواة..."

إن الخطيب يتحدث عن الأخوة في الله وما لها من أهمية وثواب، وما أعد الله للمتحابين فيه، فإذا هو يتخلص في صورة لطيفة إلى وصف الدين الإسلامي بطريقة لا يكاد القارئ يميز أنه انتقل مما كان بصدده إلى شيء آخر إلا بعد مواصلة في القراءة. انظر كيف استطاع الخطيب أن يتخلص بلطف حسن. وهذا ما اصطاح عليه النقاد بحسن التخلص، وهو كثير في خطب الخطيب إلا أن الباحث يكتفي بهذا القدر كنموذج.

حسن المقطع/الخاتمة

المقطع هو خاتمة الخطبة، وإذا كان المطلع مفتاح الخطبة وليبتها الأولى كان المقطع أو الخاتمة بحق أن تكون مغلقاً لها وليبتها الأخيرة. وأهمية الخاتمة عظيمة كونها آخر ما يصدر من الخطيب. وللأثر الأخير قيمته من ناحية بقاءه أمداً طويلاً في نفس سامعه، ولذا كان من جمال المقطع أن يأتي والنفس قد استعدت له بحيث يشعر السامع أن الخطيب قد انتهى من عرض فكرته ورتب لها كل أسباب الإيضاح، ولم يعد في نفس السامع رغبة المزيد. أما إذا كانت نفوس السامعين تشعر بحاجة إلى زيادة فمعنى ذلك أن الخطيب لم يوف الموضوع حقاً؛ فلا تصيب الخاتمة نفساً راضية مطمئنة⁴⁶. وحيد النقاد أن تكون الخاتمة وجيزة قوية السبك غير نابية عن الموضوع⁴⁷.

والشيخ إبراهيم يختتم خطبه اختتاماً جيداً يوحي بأنه وصل إلى نهاية الخطبة، وله مسالك مختلفة يستخدمها في ذلك، فأحياناً يختتم الخطيب بالدعاء للحاضرين خاصة وللأمة الإسلامية عامة، كما ظهر ذلك في نهاية خطبة له ألقاها في المولد النبوي فقال: "ثم إنني أرحب بضيوف رسول الله صلى الله عليه وسلم الكرام القادمين من شتى أنحاء إفريقيا أرجو الله أن يكتب لهم التوفيق والنجاح، ويحقق لنا ولهم الرجاء، ويبلغنا وإياهم الأمل، كما أسأله تبارك وتعالى أن يعين المسلمين المظلومين في سائر أنحاء العالم، في فلسطين، وجنوب اليمن، وكشمير، وفي سائر بقاع العالم، فيعم التحرير والأخوة والمساواة والسلام مبادئ الإسلام. ويرزقنا الله مطراً مباركاً عزيزاً. وكل عام وأنتم بخير، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته"⁴⁸.

هكذا اختتم هذه الخطبة بالدعاء للحاضرين والغائبين من الإخوة، وسأل الله تعالى أن يكشف ما يكدر صفو المسلمين، وينصر المظلومين أينما قطنوا، وأن يسقي البلاد والعباد، ثم ودعهم بعد أن أيقنوا وصوله إلى نهاية الخطبة.

وتارة أخرى يختتم بكلمة تعبر صراحة عن وصول النهاية، كقوله: وفي الختام، أو وختاماً، أو وأخيراً، إلخ. كما اختتم خطبته في المولد النبوي قائلاً: "وفي الختام أتضرع إلى الله وأسأله بلسان افتقار المسلمين أن يدارك أمة سيدنا محمد ﷺ وينصر الملة المحمدية، ويوفق الجميع لما يحب ويرضى، ويداوي يمنة قلوبنا المرضى. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"⁴⁹.

وكثيراً ما تتطوي خاتمة خطبته على موضوع الخطبة وتلخص الغرض منها، أو تعلق نهاية الخطبة ببدايتها. كما يشاهد القارئ في نهاية خطبته التي ألقاها بمصر حيث قال: "وأشكركم جميعاً على هذا الاستقبال والحنو والمحبة في الله وأرجو لي ولكم بهذه المحبة أن تكون ممن ورد فيهم الحديث: "إن الله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء لقرابهم من الحق يوم القيامة وهم الذين اجتمعوا على الله"⁵⁰ وأسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من خاصة أصحاب الشيخ وأن يمن علينا بحض فضلته ورضاه. والسلام عليكم ورحمة الله."⁵¹

فقد أذن الخطيب بوصوله إلى نهاية الخطبة كما استطاع ربط نهاية الخطبة ببدايتها، حيث شكرهم على ما شكرهم عليه في بداية الخطبة، وهو حفاوتهم به، ودعا للحضور بنيل رضا الله تعالى واليمن والبركة، على شاكلة يعرف الكل منها أنه وصل إلى نهاية الخطبة ثم سلم عليهم وودعهم.

هكذا كان الشيخ إبراهيم الكولخي يختتم خطبه، وقد ظهر جلياً أنه أعطى المقطع اهتماماً بالغا، حيث وضعه في صورة يبقى مع الذهن طويلاً "وربما حفظ من دون سائر الكلام في غالب الأحوال"⁵² فوافق فعل الخطيب ما يراه الجندي إذ يقول في أهمية المقطع: "إنه أشبه بالحلوى الذي يختم بها الطعام، فإن لم تكن الحلوى ختام الطعام كان خداجاً كما يقول الحكماء."⁵³

الخاتمة

ما مر في الصفحات الماضية عبارة عن بناء الخطبة لدى الشيخ إبراهيم الكولخي، وقد استهل الباحث بالمقدمة ثم أتى بنبرة سيرة عن حياة الخطيب فيبين أنه خطيب ماهر ألقى الخطبة على منابر كثيرة في بلاد مختلفة. بعد ذلك انطلق الباحث إلى بناء الخطبة لدى الخطيب فذكر أنه خطيب ماهر من حيث بناء الخطبة، فمن حيث المطلع قد يفتح الخطبة بالأسجاع الزنانية، وقد يستهلها مستأنساً بالنصوص، وقد يكون استهلاله بطريقة أخرى، وقد مثل الباحث لكل ذلك، كما ظهر أن خطب الشيخ تتسم في العرض بعدم تكرار الفكرة، ووحدة الموضوع، والاستناد إلى النصوص، وحسن التخلص، ومن هنا وصل الباحث إلى

46- أحمد أحمد بدوي، أسس النقد، مرجع سابق، ص: 640

47- علي محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب، دار الاعتصام، د. ت. ص: 55

48- البيرواوي، أبو الفتح، الشيخ، جواهر الرسائل، المرجع السابق، 20/2

49- البيرواوي، أبو الفتح، الشيخ، جواهر الرسائل، المرجع السابق، 13/2

50- أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، دار الكتاب العربي - بيروت، د. ت. 311/3

51- البيرواوي، أبو الفتح، الشيخ، جواهر الرسائل الحاوي بعض علوم وسيلة الوسائل، مرجع سابق، 3/2

52- الحموي، تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله، خزائن الأدب، تحقيق عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال - بيروت الطبعة الأولى، 1987،

ص: 562

53- علي الجندي، الشعراء وإنشاد الشعر، دار المعارف مصر، بدون تاريخ، ص: 147

المقطع فوجد أن الخطيب يحسن اختتام خطبه حيث أنه يوحي بنهاية الخطبة حتى لا يترك المستمع معلقا ينتظر شيئا آخر، كما أن خاتمته –غالبا- تنطوي على موضوع الخطبة وتلخص مغزاهما، أو تعلق نهاية الخطبة ببدايتها، وكثيرا ما يذكر الخطيب صراحة أنه وصل إلى الختام، وبهذا ظهر جليا أن الشيخ إبراهيم بيبي خطبته بناء جيدا يبرهن على مهارته في صناعة الخطبة. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

المراجع والمصادر

- أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، دار الكتاب العربي - بيروت، د. ت. ج: 3
- إبراهيم عاقب به، مجموعة خطب صلاة الجمعة، للشيخ إبراهيم رضي الله عنه، مكتبة النهضة، مدينة كولج-السنغال، دون تاريخ.
- ابن ماجه، السنن، ج: 11 ص: 186، نسخة إلكترونية مصدرها المكتبة الشاملة الإصدار الثالث
- ابن منظور الإفريقي، مجد ابن مكرم، لسان العرب، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى د. ت. ج: 14
- أحمد أحمد بدوي، الدكتور، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة مصر، بدون تاريخ.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط: 7 1998م.
- حبيب ياغول، الصور البيانية في ديوان نور البصر للشيخ إبراهيم الكولخي، رسالة قدمها البطلاب لقسم اللغة العربية جامعة عثمان بن فودي صكتو للحصول على درجة الماجستير، سنة 2011
- الحموي، تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله، خزنة الأدب، تحقيق عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال – بيروت الطبعة الأولى، 1987
- الحميدي، محمد بن فتح، الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق د. علي حسين البواب، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية 1423 هـ - 2002م.
- الدحان، محمد بن السيد، الجزء الثالث من رسائل الشيخ إبراهيم، مخطوط يوجد بمكتبة الباحث الخاصة.
- سالم، عبد الفتاح بن أحمد، الجزء الرابع من رسائل وخطب الشيخ إبراهيم، مخطوط يوجد بمكتبة الباحث الخاصة.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، كتاب الصناعتين، مطبعة محمد علي صبيح دون تاريخ.
- علاء الدين، علي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق بكرى حياني -صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة 1401هـ/1981م.
- علي الجندي، الشعراء وإشاد الشعر، دار المعارف مصر، بدون تاريخ.
- علي محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب، دار الاعتصام، د. ت.
- قدامة بن جعفر، نقد النثر أو كتاب البيان، المطبعة الأميرية ببولاق، ط: 1، 1941م.
- مجلة آخر ساعة، عدد 2128، بتاريخ 1975/8/5
- محمد ولد الشيخ عبد الله التجاني، الشيخ، ماذا عن الشيخ إبراهيم رضي الله عنه، مطابع مجمع الإمامة للنشر والتوزيع، تونس، 2012م.
- مقري، إبراهيم أحمد، الدكتور، الصورة الشعرية في ديوان الشيخ إبراهيم الكولخي، رسالة للحصول على درجة الدكتوراه، قدمها الباحث إلى قسم اللغة العربية جامعة بairo كنو.
- مولود، محمد سالم بن محمد ترجمة شيخ الإسلام إبراهيم بن عبد الله انياس، مخطوط، يوجد بمكتبة الباحث الخاصة.
- البرواوي، أبو الفتح، الشيخ، جواهر الرسائل الحاوي بعض علوم وسيلة الوسائل، د. م. د. ت.